صورة الجزائر عند الرسام والكاتب الفرنسي أوجين فرومنتان* في كتابه "سنة في السهل"

أ. علي بريغيث

لا يخفى على دارس آداب الشعوب أن الصورة كانت موجودة من ذي قبل في الانطباعات والإشارات التي ميزت سلوك الإنسان في مختلف الحضارات والأقطار، ومن بين الفنون الأدبية فقد قدر للرحلة أن أحدثت كشوفاً لم يكن متوقعا منها تغيير نظرة الإنسان لذاته ولغيره، من خلال رصد الكثير من الصور لمظاهر متعددة للحياة اليومية عند بعض الشعوب، خاصة ما يتصل بالبيئة وصفات ساكنيها من ملبس ومأكل وطبائع وفي الأسواق والأماكن العامة وعادات الأفراح والتقاليد المصاحبة لها، قصد اكتساب معرفة الواحد بالآخر في ثنائية من شأنها أن تنهض على افتراض الغيرية التي يتألف منها الوجود الإنساني سعيا إلى إثبات الأنا .

لذا يعد علم الصورة من أحدث المجالات في الأدب المقارَن وأهمها على الإطلاق، الذي أثبت وجوده في أواخر القرن العشرين ليرى الشعب أيّ كان صورة نفسه وما بها من محاسن يثمنها وعيوب فيقوّمها .

وبالرغم مما تسعى إليه الصورة من أمانة ودقة وصفاء إلا أن تمثيلها للواقع ومطابقتها له مطابقة كلية أمر لا يمكن حدوثه، ذلك " أن الصورة غير ثابتة فالشخص يتغير دائما، يتغير في شكله كما يتغير في باطنه، يتغير في شكله لأنه يتطور مع نمط الحياة، فهو يغير ملابسه وطريقته في الحياة اليومية، ويتغير كذلك في باطنه، فيتخلى عن بعض الأفكار، ويؤمن بأفكار أخرى جديدة أو قديمة لم يكن يؤمن بها، إنّه يعيش وينمو ويتطور، فالإنسان غير جامد، وعدم الجمود يعني الحركة والتطور أي التغير، وقد يكون التغير سريعا وقد يكون بطيئا " 61

وليس خافيا أن بوادر الاستشراق قد ظهرت على يد علماء الدين المسيحيين في أوروبا لمعرفة تفاصيل أرض وموطن السيّد المسيح عليه السلام،فقد شغف الكثير منهم بقصص الشرق وأساطيره ؛ وعلى مرّ الأيام تحوّل الاستشراق إلى هدف استعماري، فنتج عن ذلك ظهور دراسات علمية حديثة وأبحاث وأقوال مختلفة جعلت من الشرقي وبيئته صورة لإنسان بدائي على خلاف ما وصل إليه الغربي إلى حدّ القرن التاسع عشر من حضارة مزدهرة، معتزا بثقافته وتاريخه ودينه وذاتيته الرافضة لكل نقيض لرغبته المفعمة بالمدّ الاستعماري والساعية إلى التوسع والاستيلاء إلى ما وراء حدود أوروبا خاصة العالم الإسلامي في مشرقه ومغربه العربيين، والذي خضع لمطامع فرنسا وبريطانيا بالرغم من تصادم مصالحهما، ومع ذلك ترجم الفرنسيون جلّما دوّنته دول أوروبا وأمريكا عن الجزائر.

وقد اتّسم الاستشراق الفرنسي باحتلال الجزائر على حدّ رأي الدكتور أبي القاسم سعد الله بمرحلتين (1830 - 1880) و(1880 - 1930)، قرن كامل كان فيه الاهتمام بالجزائر قلبا وقالبا " فمن البديهي أن يهتم المستشرقون الفرنسيون بالشعب المستعمَر دينا ولغة وعادات وآثارا وتاريخا، كما أنّه من البديهي أن يتطور هذا الاهتمام حسب حاجة الإدارة الاستعمارية وحاجة الدولة الفرنسية نفسها في العالم " 62 لتصل إليها التقارير الاستكشافية " في أعمال (الجواسيس والتجار والمبشرين والفنانين والمؤرخين والبحارة والأثرياء والمعمرين والمغامرين والرّحالة والدبلوماسيين والبعثات العلمية وغيرهم ممن رافق الجيش الفرنسي)،الذين حلّوا بالجزائر بصفة فردية أو على نفقة الحكومة الفرنسية " 63 فكانت الصورة تلتقط عن حياة الجزائر الشرقية مهما كانت قيمتها فيما يخص الإنسان ماضيا وحاضرا وبيئته الفطرية الخلابة .

ومن أولئك الذين تأثروا بحياة الجزائر مع بداية الاحتلال، الفنان الرومانسي أوجين دو لاكروا الذي مكث بين ثلاثة إلى عشرة أيام بالجزائر " وادّعى أنه رأى حريما أو دارا من الداخل المحرم على أمثاله " 64 فاشتهر برسم مشهد فنّي خالد عنوانه « نساء الجزائر »، وعدّها الفن الفرنسي رائعة ووثيقة مطابقة لواقع الطبيعة والحياة من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي .

" ولكن المرأة الجزائرية الحقيقية كانت كالمرجانة الصافية " 65 معززة مكرمة في بيتها، وما التقاط الصورة لها إلا حالة استثنائية من قبيل الصدفة التاريخية ؛ " هذا رائع إنهن كما في عصر هوميروس، إني أفضل صورة المرأة هذه على كل ما عداها " 66 حيث أرضى بها الفنان فضوله وإصراره في البحث وأدخلته خلسة إلى هذا الحصن المكين بحسب زعمه مظهرا أسراره ومحاسنه وطبيعته وعطوره، مفسحا المجال أمام من هم في فلك تخصصه إلى الاستفادة من تجربته الفريدة .

ومن الفنانين الذين زاروا الجزائر وتتلمذوا على يد دو لاكروا وتأثروا بأعماله في كتاباتهم أوجين فرومنتان " سأذهب لرؤية ما إذا كانت شقة «حوّة » تشبه الصورة الرائعة لـ : دو لاكروا (نساء الجزائر) "67، ثم يضيف " وصولا أمام غرفة سيّدتها أدارت الخادمة السوداء رأسها إلى النصف من جانبي وعملت بالضبط الإشارة التي كانت بإمكانك رؤيتها في صورة دو لاكروا من أجل إزاحة الستار المتورّد " 68 . فهنا يلاحظ أن فرومنتان منبهر بهذا المشهد الفطري الشبيه بلوحة « نساء الجزائر » كما كان مهووسا إلى درجة الإفراط في ذكر طبيعة الجزائر وامتزاجه معها، تكريسا لثنائية الأنا والطبيعة خدمة للفن الذي ينشده ورغبة منه إلى ترشيد مجتمعه إلى القيم الجمالية الموجودة هنا والتي تفتقر إليها بلاده، إلا أنّه لم ينصف الإنسان،فعدّ ممن هم في وضع الرّهاب، ذلك أنه أقصى الآخر وبحث عن موته الرمزي، فلا وجود إلا لإفريقيا فرنسية "

---

* أوجين فرومنتان (1820-1876)" Eugène Fromentin "، زار الجزائر في ثلاث رحلات (1846، 1847، 1852) وقد خصها بكتابين تحت عنوان : " Une année dans le Sahel ". " Un été dans le Sahara "

61 . عبد المجيد حنون . صورة الفرنسي في الرواية المغربية . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر ؛ 1986 . ص 82 .

62 . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 8 . ص 41 .

63 . المرجع نفسه. ص 50 .

64 . المرجع السابق . ص 378 .

65 . المرجع نفسه . ج 6 . ص 356 .

66 . Delacroix E. Voyage au Maroc 1832 . Paris 1930 . p 24 .

67 . Eugène Fromentin . Une année dans le Sahel . Michel Lévy Frères, Libraires - Editeurs . Paris 1859 . P 175 .

68 . Ibid : P 177 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

فالجزائر كانت عنده مجرد موضوع جميل، ريفها وصحراؤها وسماؤها ولذلك فهي موضوع للامتلاك والاستقلال وإذن فهي عنده فريسة يجب قنصها، وقطعة من الشرق يجب فرنستها ." 69

لقد وقعت الجزائر في دائرة اهتمام الرسام والكاتب فرومنتان منبهرا بسحر جمالها معبرا عنه بحد الريشة والقلم،موطّدا علاقته بإخلاص مع جمهوره الفرنسي الذي عدّه باعث الإبداع والحداثة *، ولثقل هذه المسؤولية كتب إلى أحد أصدقائه معلقا على رحلات سابقة، يقول : " إنني أشعر بما ينقص فنّاني بلدنا الرحالة، وأعني الصبر والإخلاص للطبيعة " 70، فهو يحس بفقدانه موهبة الخيال الإبداعي وعدم القدرة على الابتكار والتناقض في شخصيته المتولّد من شكل الواقع الذي يريد تجسيده، فكتب إلى أهله معترفا بثغرات شخصيته الفنية " إنني أفتقر إلى موهبة التجريد، وذلك لأنني لا أتقن النظر الثاقب . ولهذا تشخص أمامي مهمة إضفاء أقصى حدّ من الفنية على تصوير الطبيعة "71 . واعترافا منه على أن الطبيعة الجزائرية أيقظت فيه روح الإبداع بقوله : " إني أعيش خارج الزمان والمكان منذ أكثر من شهر ؛ حيث أهذي في اليقظة وأخشى أن أستيقظ " 72 . لقد أملت عليه الرغبة التوجه إلى الصّحراء لاختبارها، راصدا طبيعة الإنسان فيها وتعامله مع مناخها حيث درجة الحرارة المرتفعة والزوابع الرملية الهوجاء وكثبان الرمل والحيوان والزواحف والحشرات والنبات وواحات النخيل والسواقي ... إنها صورة الحياة والبيئة على أصالتها، مما جعلها عناصر قوية سخرها لإثراء فنه كمصور وكاتب، ولن تكون في نظره سخية كفاية ما لم تسمح به الفرصة التوغل في نسيج الشعب الجزائري، مبلغ هدفه في تسجيل تغيرات الطبيعة وطباع الناس بعمق، وفي تحقيق التميّز المعقول الذي لم يظفر به أحد من قبله من الرحالة الفرنسيين مما استقاه من معارف أدبية وتاريخية وتصويرية عن مناطق الساحل والسهل والصحراء الجزائرية .

لقد سعى فرومنتان إلى البحث عن الصورة الفطرية الموحية المبتدعة،وقد وجدها في مشاهد الصيد والرّعي والحيوان والآثار والغابة والمناخ والبحر والصحراء والتّل وفي الجبل والسّهل والوادي وإنسان الحاضرة والبادية ... وكانت نفسه تتوق دوما إلى التجوال في الريف والبراري وتلك عادة الرومانسيين، سعيا منه إلى توفير أسباب الراحة واقتناص الجديد والتفاعل مع متطلبات الحياة المعاصرة في تباين الألوان، وفيما يعبر حقا عن مشهد خصب مثال عن الجمال والفن الخالص.

ومن جملة ما أنجزه فرومنتان كرسّام مبدع على خلاف معاصره من وحي الصحراء والتل، ألواحه : صيد الغزلان - واحة النخيل - مخيم من جبال الأطلس 73 - هبوب الريح في الصحراء 74 - لصوص الليل 75 - بلاد العطش76 - وغيرها من العناوين المرتبطة بهذه البيئة الفطرية الموحية .

وحول موضوع الجزائر ألف فرومنتان كتابين، الأول بعنوان " صيف في الصحراء " (1857) متحدثا فيه عن مدينة الأغواط بنظرة رسام لا كاتب على حدّ قوله : "أنا أشعر بكل نقص فيما ألّفت ولكنّني لا أستطيع فعل شيء الآن ... تبدو كتاباتي مفصولة بعضها عن بعض، كأنها لوحات تحتاج إلى أن أربط بينها، لم أشأ أن أخدع نفسي، أجدني أتصرف كرسام على الرغم مني،بيد أنني لا أشك في وجود جو عامر يلمّ شعثها ولاسيما جوّ من الحرارة والقوة " 77. وهذا ما انعكس حقيقة في الموضوعات التي عالجها الكاتب في كتابه الثاني « سنة في السهل » (1858)الذي وصفه على أنّه " تقرير Bulletin لهذا السفر القصير " 78 وتارة صحيفة Journal عند قوله " ربما نسميه فيما بعد (صحيفة سفر) . لنكن اليوم متواضعين، ونسميه بكل بساطة (صحيفة غائب) " 79 ؛ وفي موضع آخر من كتابه يقول : " رتبت وثائق صحيفتي ورسوماتي من الطريق، قليلا بحزن، لأنه مقارنة بما رأيته هنالك بدا لي تافها كل هذا الذي لم يكن جميلا ... " 80

وعلى مرّ الأيام تمكن فرومنتان من أداة الكتابة والإفصاح عما في نفسه من أفكار ومشاعر بطريقة لغوية راقية، كشفت عن مواهبه وميوله و" كان ناضجا في ملاحظاته ويتتبع كل التفاصيل "81 وكانت له القدرة على إجراء الحوار واستحضار الشخوص وإبداء الانفعال لما هو جميل أو قبيح، مما يؤكد توازنه الكامل أمام "العالم الشرقي" وهو يعبر عنه، وهنا يقول : " بدا لي وأنا أنجز الكتابين، أن أقارن بين طريقتين للتعبير بدتا متشابهتين قليلا على عكس ما يفترضه البعض، كان علي أن أعرف إذا كانت آليتهما هي نفسها أو تختلف من واحدة إلى أخرى، وأن أعرف مصير أفكاري وأن أنقلها من عالم الأشكال والألوان إلى عالم الكلمات، هذه الفرصة لا تسنح إلا نادرا " 82 .

والواضح أنه في القرن التاسع عشر الميلادي، زادت الحاجة إلى قراءة الكتب في ظل عنفوان الحركة الرومانتيكية في فرنسا وأوروبا عامة هروبا من الواقع الذي اكتسحته الصناعة والمال ؛ ونظرا لرواج النظريات الاجتماعية والأنثربولوجية والأثنولوجية * والدينية، سعى الكتّاب والفنانون والمؤرخون منذ احتلال الجزائر في البحث عن الصورة المثيرة مما فسح

---

[69] . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 8 . ص 381 .

* ... إنها برنامج تحريري للثقافة والفن، أو إن شئت فقل إنها التصور الجديد للحياة ذاتها ... في ظل إيقاعات الزمن المتلاحقة، والتطور المذهل في النمو المعرفي، والمتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، والاستجابة الايجابية لمظاهر التغيير عند مختلف الشرائح الاجتماعية ... فتجلت في أعمال الكتاب والفنانين من خلال تلك الحركات الفنية المعروفة - آنذاك - . (مجلة عالم الفكر . الكويت؛ 1988 . ص 07 . 08)

[70] . Eugène Fromentin . Les Lettre de jeunesse . Paris . 1909 . P : 240 .

[71] . Ibid . P : 182 .

[72] . Ibid . P : 182 .

[73] . فرومنتان . لوحة : " مخيم من جبال الأطلس " زيت، 1860 صالة الفن في بالتيمور .

[74] . فرومنتان . لوحة : " هبوب الريح في الصحراء " . 1864 مجموعة خاصة هيوستن .

[75] . فرومنتان . لوحة : " لصوص الليل " اسكينر . 1865 مجموعة كريستي لندن .

[76] . فرومنتان . لوحة : " بلاد العطش " . 1869 متحف أورسي، باريس .

[77] . Un été dans le Sahara . P 33

[78] . Une année dans le Sahel . P 03 .

[79] . Ibid : P 133 .

[80] . Ibid : P 242 .

[81] . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 8 . ص 381 .

[82] . Un été dans le Sahara . P 59 .

* فالرحالة الغربيون في دراستهم للشرق كانوا أنثربولوجيين وإثنولوجيين ؛ بمعنى أنهم يعنون بالدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات والقيم، والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى المجتمع الشرقي خلال فترة زمنية محددة،

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

المجال إلى ظهور كتب الانطباعات التي " تتناول السكان وأنماط حياتهم وملابسهم وعاداتهم وأخلاقهم، والأحياء السكنية، وتناقضات الطبيعة في نظر الكتّاب، وفتنة السماء والبحر واختلاف المناظر «الإفريقية» عن المناظر الأوروبية " 83

ويبدو جليا أيضا باعتراف الكثير من الدارسين الفرنسيين أن فضل فرومنتان فيما استوحاه من موضوع الجزائر قد وردت آثاره في العديد من إبداعات بعض معاصريه ومن تليه من بعده مثل أندري جيد وإيميل ماسكري وإتيان ديني وغيرهم* .

ومن المواقع التي خصها الكاتب بحديثه منطقة « السهل » وما ضمت من مناطق ريفية وأودية معروفة، " أنظر السهل ! الأفق رائع الامتداد، من العظمة ومن الاتزان، المسافر يبقى متعلقا به، حتى بعد مشاهدة أكثر من صورة نادرة ." 84

والظاهر " أن أول ما واجه التوسع الاستعماري في الجزائر بعد احتلال مدينة الجزائر مباشرة هو سهل « متيجة » والذي عرف أيضا بفحص الجزائر " 85، سعيا منه إلى السيطرة عليه بإحراز التقدم في استغلال الأرض خارج مدينة الجزائر قصد التصدي لحركات المقاومة وتضييق الخناق عليها بقطع الإمدادات عنها لإخماد نيرانها من جهة، وبلوغ المناطق الداخلية تدريجيا من جهة أخرى .

كما أن فرومنتان تحدث عن مدينة « قصر البخاري » في إيجاز، والتي عدّها مركز عبور وإقامة للأشخاص والقوافل، حيث أنها تضم فندقا ومقهى ومرافق أُخر لاستراحة الوافدين إليها من كل اتجاه ؛ والتي على قرب منها تظهر قلعة « بوغار » العسكرية الحصينة والمعدة أساسا لغزو الصحراء .

وعلى خط سير الكاتب يلاحظ أنه مر بـ « الجلفة » موطن « أولاد نائل » وقضى بها عدة أيام متمتعا بجمال مناظرها ؛ مرتبطا بكل المناطق التي زارها عاطفيا، مدافعا عنها في كتاباته كأرض يراها ملكا له، مخلصا في ذكر التفاصيل عنها بكل دقة " إن كل أماكن لحظات عزلتنا الماضية، والأماكن التي عانينا فيها من الوحدة والتي استمتعنا بها ورغبنا فيها وتألفنا مع الوحدة فيها تظل راسخة في داخلنا، لأننا نرغب في أن تبقى كذلك ؛ الإنسان يعلم غريزيا أن المكان المرتبط بوحدته مكان خلاق ؛ يحدث هذا حتى حين تختفي هذه الأماكن من الحاضر .. " 86

وعن مدينة « الأغواط » فهي تقع في الجنوب من مدينة الجزائر، وتعتبر همزة وصل بين الشمال والصحراء " وقد كانت ملتقى العلماء ورجال الدين ومقصد التجار مما جعل الميزابيين واليهود يحطون بها الرّحال منذ القديم ليحترفوا بها التجارة ويشتغلوا في الصناعات المختلفة . وقد كانوا يعيشون جنبا إلى جنب مع الأغواطيين تجمعهم مدينة واحدة وعلاقات مشتركة مبنية على حسن الجوار وتبادل المصالح والمنافع . "87 وكان من بين الأهداف العسكرية من احتلال الأغواط، هو التوغل في الصحراء وإخضاع مدنها إتباعا إلى نهاية القرن التاسع عشر . في حين أن زيارة الكاتب لهذه المدينة الإستراتيجية هو اكتشاف الصحراء بعد تيقنه أن الأغواط أصبحت تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي نهائيا سنة 1853 .

والمطلع على رحلة فرومنتان يجده قد تكلم عن كل هذا تارة بصفة إجمالية مختصرة وتارة مفصلة حسب أهمية المنطقة وحجم المدينة وأهميتها التاريخية، وعلى العموم فإن " مدن شمال إفريقيا تأسست حول نواة مركزية يمكن تشبيهها بالخلية الأم التي تتكون غالبا من المسجد والمقبرة والسوق يحصّنها سور به أبواب يرسم حدود المدينة بكيفية دقيقة ... وبداخلها يظهر الحمّام* ببنائه المتميز وترتفع قصور جميلة يسكنها الأشراف والسادة " 88 .

لقد أثرت الجزائر كثيرا في فرومنتان حتى أنه بعد أن رجع إلى الجزائر (العاصمة) وسكن قصرا بناحية مصطفى باشا، بدأ بالتعريف بالبيت والمحيط الذي يسكنه " المنزل الذي أسكنه رائع لقد وضع كمرصد بين التلال والشاطئ ويشرف على أفق مذهل : على اليسار الجزائر وعلى اليمين حوض الخليج بأكمله إلى حدّ رأس « ما تيفو » الذي يظهر عبر نقطة ضاربة إلى اللون الرمادي بين السماء والماء، وأمامي البحر . " 89وبالمنزل إسطبل به خيول وحمَامٌ وكلب حراسة، وتحيط به حديقتان، إحداهما صغيرة مشجرة والثانية روضة مروج للرّعي فسيحة ملك للكاتب وخادم عربي وجار بولوني .

ولعل فرومنتان حينما تحدث عن خاصته،البيت الذي يقطنه إنما يلوّح من بعيد عن الكنز الذي عثر عليه هنا سعيا منه إلى دعوة غيره في الهجرة إلى الجزائر وأن يحذوا حذوه في امتلاك البيوت والضياع وسط هذا الأفق المفتوح والطبيعة الساحرة .

لقد استوقفت فرومنتان منازل الجزائر (العاصمة) المنغلقة والمحترسة من الدخلاء ليعبر عن ذلك بقوله : " مدنهم ضمن البناء بالذات الأكثر رمزية وذات معنى، « مدنهم البيضاء » يلجأونها، تقريبا تشبه البرنوس القومي الذي يكسيهم، على شكل غطاء ضمن نمط واحد وخشن ؛ شوارع على شكل شُعب مظلمة غالبا مقوسة، منازل دون نوافذ، أبواب منخفضة، دكاكين في مظهرها الأكثر فقرا، حيث السلع مكدسة ومبعثرة فوق بعضها البعض كما لو أن البائع يخشى عليها من الظهور، صناعات تقريبا بلا أدوات ؛ أكيد التجارة الصغيرة مضحكة، أحيانا بعض الثراء في عمق خفي، لا حدائق لا اخضرار مجرد قدم ميّتة لشجرة عنب أو تين غارقة في الردم، ملتقيات للطرق، جوامع لا يمكننا رؤيتها، حمامات أين يترددون عليها باستمرار غريب، كتلة واحدة متماسكة في غموض من العمارة مشيدة كالضريح أين الحياة تتكتم، أين المرح يخشى أن يسمع ... " 90

ثم يقومون بدراسة تحليلية والمقارنة للمادة الأنثربولوجية بهدف الوصول إلى تصورات نظرية، أو تعميمات بصدد مختلف النظم الاجتماعية الإنسانية من حيث أصولها وتنوعها ... (جمال أمباركي . الغرب في الرواية العربية الحديثة بحث لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث . جامعة باتنة 2008 - 2009. ص 48)

[83] . د. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج 6 . ص 381 .

* وذلك بحسب رأي أبي القاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي . ج6 و ج8 . ص 382 و415 على الترتيب

[84] . Une année dans le Sahel : P 154 .

[85] . إبراهيم مياسي . مقاربات في تاريخ الجزائر . ص 71 .

[86] . غاستون باشلار . جمالايات المكان ؛ ترجمة : غالب هلسا . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2 . 1984؛ ص 40 .

[87] . عيسى عطاشي صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء" لفرومنتان نموذجا. 2005 . ص 66

* مرفق ضروري عند المسلمين للاغتسال والوضوء من أجل تأدية الفرائض الدينية .

[88] . Roger Le Tournau " Les villes Musulmanes de L'Afrique du nord " Ma Maison des livres . Alger 1957 . P 11 .

[89] . Une année dans le Sahel : P 10 .

[90] . Ibid : P 31 . 32 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ففي الظاهر أن فرومنتان أبدى إعجابه بعمارة مدينة الجزائر وطبيعتها الساحرة والتي بدأت هذه الأخيرة تخضع لعملية تجميل على طراز الهندسة المعمارية التي تشهدها كبرى مدن فرنسا وأوروبا عامة مع المحافظة على بعض المعالم التراثية العربية العريقة من قبيل الذكرى التاريخية لهذه المدينة المشرفة على زوال أهلها، أولئك الذين نظر إليهم فرومنتان على وجه العموم نظرة كراهية واستصغار شأنهم حين رآهم ملتفين حول أنفسهم خشية الذوبان والاندماج مع غيرهم والصمت يطوق بيوتهم ؛ غير أنه وجد فضاءات أُخر أكثر انفتاحا بإمكانها البوح بأسرارها والتزود من أخبارها بما لم يألفه من ذي قبل .

وفي قوله : " الأجنبي يسميك المدينة الصغيرة، وأنا البليدي أسمّيك الوردة الصغيرة « وريدة » " 91 كلمة أطلقها الكاتب على مدينة البليدة ؛ والتي قدم إليها من الجزائر على متن عربة تجرها الخيول، ليستغرق مدة خمس ساعات من السفر الشاق عبر طريق ترابية ملتوية، استجابة لدعوة صديقه لويس فوندال* « بوجعبة » للإقامة معه في هذه المدينة المفتوحة على سهل « متيجة » والتي بدأت تهيئتها على الطراز المعماري الأوروبي بإقامة الثكنات والعمارات والفنادق والمطاحن والمصانع ومشاريع شق الطرق، ... يأتونها رجال الحرب الفرنسيين للاسترخاء بها، كما أصبحت قبلة للمستوطنين والوافدين إليها من كل حدب وصوب، مما كلف الكثير من أهلها الأصليين بالنزوح عنها إلى المناطق المحاذية لها والاستقرار في المناطق الجبلية، حين تغيرت ملامحها العربية بملامح غربية " المرابطون ضمن هذا ليس لهم مكان . يسكنون في عزلة في الجبل، المساجد لا تنقش إلا لأجل الذاكرة ومثل سبحة في يد فاسق، البليدة تشبه اليوم،سمةً بسمةٍ إلى الموريسكية التي رأيتها تتجول في المدينة، التي كانت جميلة، والتي ما أصبحت كذلك، مرتدية كالفرنسية قبعة سيئة الذوق وفستانا قبيح الهيئة وقفزات قديمة، ليس لها ظل في الطرقات، لا وجود للمقاهي ثلاثة أرباع المنازل محطمة واستبدلت من خلال عمارات أوروبية، ثكنات ضخمة، طرق للمعمرين، في مكان من الحياة العربية، هذا الذي الحرب قد بدأته، السلم قضى عليه . اليوم أين البليدة لا يكون لها شيء عربي، تغدو مدينة جميلة للغاية، البليدة الحديثة ربما تُنسى القديمة اليوم أين هؤلاء يتأسفون عنها هم أنفسهم يختفون " 92 .

لقد حرص الكاتب في كتابه على إعطاء صورة عن المجتمع الجزائري للقارئ الأوروبي، بيّن في بعض منها سعي فئة من الشعب الجزائري إلى طلب الاندماج في فرنسا،مؤكدا هذا التوجّه عبر من ادعى أنهم أصدقاؤه من العرب في الجزائر ؛ والحقيقة أن الشعب الجزائري على طيبته لم يقبل يوما بوجودها على أرضه، ولم يغفل عن نواياها الخبيثة، متخذا ضدها كل وسائل الرفض من مقاومة والتزام بالدين واللغة والعادات وبقاء على عهد الأجداد وتحذير الأجيال وتعبئة نفوسهم وإحياء ضمائرهم بالوعي والروح الوطنية .

ولا شك أن من بين أهداف الاستعمار المعلنة، هو إلحاق أرض الجزائر بفرنسا، وترسيخ هذه الفكرة لدى الرأي العام العالمي والأجيال الجزائرية الصاعدة عن طريق توثيق المعلومات وجرد الأشياء وإحصاء السكان بمنحهم الامتيازات التي تجعل منهم مواطنين مخلصين للدولة الفرنسية، وهذا لا يمنع طبعها بالمقابل من إثارة الفتن وانتهاج سياسة المغالطة في محاولة لتغطية جرائمها الفظيعة وتمزيق وحدة الجزائريين وصفهم وبث الشقاق بين السكان بتقسيمهم إلى بربر وعرب وأفارقة وأصليين ودخلاء، ليخلو لها الجو في تحقيق مآربها من تزييف الحقائق والتاريخ لتبرر وجودها في الجزائر على أنها سليلة الإمبراطورية الرومانية وأن لها الحق في بسط سيطرتها على الشمال الإفريقي، لكن ذلك كله لم يدفع الجزائريين إلى المساومة في حقوقهم، ولم يمنعهم من الاستمرار في المقاومة لإثبات هويتهم كشعب متكامل ناضج التكوين، وأن لحمته الاجتماعية موحدة بفضل الدين الإسلامي واللغة العربية ؛ " وذهب بعض المستعمرين يبحث للقبائل عن أصل آري، وقالوا إنهم من أصل جرماني، وإنهم عرفوا المسيحية قديما . " 93

والصورة التي يقدمها الكاتب للمجتمع الجزائري موقوفة على أعراق ثلاثة، وهي : الأمازيغي والعربي والإفريقي ؛ مبينا تمايزها، وما تضمره كل طائفة للأخرى من كراهية ونفور، ليعد تفرقها مكسبا في فنائها، كحدود فاصلة بينها تخدم مصالح إدارة الاحتلال الفرنسي .

غير أن الحقيقة عكس ذلك، فقد كانت الأمة الجزائرية موحدة بفضل تعاليم دينها الإسلامي الحنيف، إلى جانب تاريخها المشترك بين جميع الجزائريين والذي " تكون عبر العصور المختلفة، وتقاطع في كثير من فتراته مع تاريخ جيرانهم وإخوانهم في بلاد المغرب والمشرق ... وبكفاحهم الطويل ضد كل الغزاة والمحتلين الذين نزلوا بأرضهم، ولأجل ذلك أطلقوا على أنفسهم اسم الأمازيغ، أي الأحرار " 94 .

ومن الصور التي قدمها فرومنتان عن المجتمع الجزائري، تمسكه الشديد بالدين الإسلامي وشعوره بوجود الله، وقد تمثل عنده ذلك، في تواجد نوافير الماء للوضوء، وإقبال الناس على المساجد، وإقامة فريضة الصلاة، والتسبيح بواسطة السبحة، ومجاهدة النفس عن اقتراف الذنوب، كاجتناب التدخين مثلا ؛ "ومن ثمّ كان الطابع الذي يميز ثقافة الشرق إنما يتمثل في الدين، فمنه انبثقت نظرة الشرقي إلى الحياة، ولعلي لا أخطئ إذا قلت - بعد ذلك - إن جوهر الشرقي هو أن يحيى حياته الدنيا بكل أفراحها، وهو ينظر إليها من منظور ديني " 95 .

وفي نفس الوقت أشار إلى وجود الكثير من الطقوس التعبدية البالية المرتبطة بانتشار القباب والتوسل بالموتى والمرابطين والدراويش ؛ " ذلك أنه في الوقت الذي كان فيه علماء أوروبا ينادون بالحرية العقلية لتحرير العامة من ربقة

---

[91] . Ibid : P 150 .

* لويس فوندال : رحالة فرنسي ، يسميه عرب البادية والحاضر في شمال الجزائر بـ "بوجعبة" إذ أنه يحمل أسطوانة يقيس بها الأبعاد ويملك فرسا مسرجة طقما عربيا وهو صديق حميم لفرومنتان ، تقاسم معه أوقاتا ممتعة جمعتهما في مدينة البليدة خاصة في فندق « بو ضياف » وسوق « باب السبت » وعند الحلاق « حسان » وفي بيت « حوة » والخروج في رحلة صيد إلى منطقة السهل وحضور حفل فروسية موعود للحجوطيين لينسدل ستار التوادع بينهما في آخر الكتاب بين مقيم وراحل على أمل اللقاء هنا " ومدّ ذراعيه عبر إشارة كبيرة التي تشبه المحيط لحظة المرئي من هذه « الأرض الإفريقية » ضمن ممتلكاته العقلية . [« سنة في السهل » ص 346]

[92] . Ibid : P 151 .

[93] . أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه .ص 79 .

[94] . المرجع السابق . ص 24 .

[95] .منى أحمد أبو زيد، الفكر الديني عند زكي نجيب محمود. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.ط1.بيروت، لبنان؛ ص 73

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الخرافات ويبدعون علوما وفنونا للنهوض بالإنسان، كان مرابطو الجزائر يلبسون على العامة ويستغلونهم أشنع استغلال ويغرقون العقول في ظلام دامس . " 96

وهذا ما جعل فرومنتان يحكم على العربي بأنه يعيش ماضيه الحزين والمشرق في حاضره العقيم، وهنا يظهر عجزه في انسداد أفق المستقبل لديه " ولذلك فلا مجال إلى صنع التاريخ لأن التاريخ يفترض الإيمان بالمستقبل وقدرة الإنسان على صنعه "97 وهنا مكمن الفرق بين الشرق الأسطوري والغرب الذي لا يؤمن إلا بالزمن التاريخي، متطلع دوما إلى تأملات، يراوده حلم تحقيقها في آجال مستقبلية محددة .

وفي نظرةٍ مُوازَنَةٍ، رأى الكاتب أن العيش عند الأوروبيين يعني التغيير باستمرار، بينما عند العرب يعني لهم التواجد والتحمل، وهذا ما عده أحد الأسباب الرئيسية التي تمنعهم من الاندماج.

وقد وصف الكاتب العرب بأنهم أناس لا عهد لهم بالموسيقى ولا يتذوقون أنغامها، وقد فسر « فوندال » ذلك بالطموح الذي يراود العرب المبني أساسا على التفاخر مما در عليهم بالقليل وأفقدهم الكثير من سبل الحياة، على خلاف الزنوج وميلهم إلى الحفلات والأهازيج .

كما حرص الكاتب أن يقدم للقارئ الأوروبي صورة عن العنف الذي نسبه إلى الجزائريين، وفي ارتكابهم الفعل العدواني ؛ وأن ما تقوم به فرنسا، هو مجرد رد فعل تال يراد منه إقامة النظام وتسيير شؤون العامة ودعوتهم إلى الانضباط، وأنه ليس هنالك أفعال سلبية فرنسية ؛ فيكفي الجزائري بوجود فرنسا أنه يعيش في أمن وأمان لم يعهدهما من ذي قبل ؛ " هنالك بعض السنوات أيضا، البليديون لا يخرجون دون امتلاك بندقية صيد معبأة على الكتف، ويعتقدون بحذر أن يكونوا في جماعة وكلها مسلحة . لأجل إتمام هذه النزهة الصغيرة على بعد كيلو مترين فما فوق من مدينتهم . اليوم بطبيعة الحال، كل واحد يذهب بمفرده إلى ينابيع الوادي، مدخنا سيجارته معه الكثير من الأمان إلى الحديقة العامة من « السّجاد الأخضر » والكثير أكثر استحبابا ." 98

وسعيا منه إلى ربط أحداث الماضي بالحاضر، قام الكاتب بتدوين ما من شأنه أن يغدو مرآة عاكسة للبيئة والإنسان الجزائري، مثمنا أهداف رحلاته الثلاث الأستكشافية إلى الجزائر مظهرا مدى تباين الظروف التي تكون أحيانا في خدمة الدولة الفرنسية، وأحيانا أخرى تكون ضد مصالحها ؛ ففي رأي الكاتب أنه في المجتمع الجزائري هنالك المؤتمن الخدوم وهنالك من يجب الاحتراس منه ومقاومته بشتى الطرق " كان منتصف النهار، ... تحديدا في 15 مارس 1848 . غادرنا « الزمالة » ...؛ ولما كنا في الطريق وفي وسطها بالقرب من دوار القرية، مراسل عربي - الذي يبحث عنّا منذ الصباح - أسرع نحونا في ركض (على ظهر حصان)، كان بحوزته تذكرة تخصّنا والصحيفة الأولى من القائد العام ، قائلا لنا ذلك، هذه التذكرة والصحيفة التي تحمل في مقدمتها : « الجمهورية الفرنسية » جلبت لنا الجديد غير المتوقع والخطير جدا ... قرأت ثانية هذا وذاك وبانتباه بعد وجبة الغذاء في الحديقة نفسها، في وسط دائرة من الناس أين لا أحد يتحدث لغتي . لكن جدّ مثير للريبة مثل العرب . أنت تعرف كيف أن الأخبار تذاع في هذا البلد، إنها الريح التي تنقلها ... " 99 ؛ وهنا تأكيد أن جل الجزائريين مفشون للأسرار بسبب تعصبهم وعدوانيتهم الجدّ مفرطة في نظر الكاتب .

واللافت للانتباه أنه وصف العرب بأنهم جيران متميزون، بإمكانهم الاندماج مع الفرنسيين، إلا أن ما يطلبون تحقيقه يعد ضربا من المستحيل في نظر الكاتب، كونهم " يتصرفون وفقا لأهوائهم، يفعلون كل ما قام به آباؤهم، يتملكون الأرض دون عملية المسح التي تقوم بها إدارتنا الفرنسية، يبنون دون مراعاة تخطيطنا لشوارعهم، يسافرون دون تقفّ لتحركاتهم، ينشؤون دون تقييدهم في سجلات الميلاد، يكبرون دون خضوعهم للتطعيم، ويفارقون الحياة ثم يقبرون دون اتخاذ الإجراءات المعمول بها عند الدفن تعويضا عما علّ متهم المدنية، يطالبون القانون أن يكون مكشوفا ؛ أن يعيشوا محتاجين، متسولين عند الأبواب، ينامون تحت النجوم الجميلة، يخلون الأسواق، ويتركون الحقول بورا، إنهم يحتقرون حتى التراب الذي انتزع منهم عنوة ويهربون من الأرض التي لم يصونوها، ما يمتلكونه يخفونه ويكنزونه والذين لا شيء عندهم يختبئون في بؤسهم وجميع الحقوق التي فقدوها ."100 ليحكم عليهم بأنهم أناس أشقياء مبعدون يضمرون الكراهية للغرب عامة وللفرنسيين خاصة، في عدلهم وديانتهم وتجارتهم وصناعتهم وقوتهم وعبقريتهم ؛ مبديا حنقه منهم لعدم تجاوبهم مع هذا الرقي لصغر عقولهم مثل أطفال، بما يفسره الكاتب بقوله : " القوة لا تعجبهم أبدا ... هذا الذي يكرهونه، إنه جيرتنا وهذا يعني أنفسنا، إنها مظاهرنا، عاداتنا، طبعنا، عبقريتنا، يخافون حتى منافعنا ليس بمقدورنا إبادتهم لقد خضعوا لنا . لا يمكننا الهروب، إنهم يجنبوننا مبادئهم، حكمهم منهجهم في السكون والاختفاء قدر الإمكان بنفس تصرف النسيان . " 101

والنتيجة المؤكدة التي توصل إليها فرومنتان أن " بيت العربي هو سجن بقفل متين مغلق مثل صندوق قوي،ربُّ البيت بخيل لديه المفتاح يعمد على غفل كافة الأسرار ولا أحد يعرفها ولا أحد يستطيع أن يحصي ما لديه وكم يملك أو ما ثمن ذلك ... " 102 وهذا من داخل البيت أما في خارجه فهنالك عالم مخالف وحركة نشطة، فقد ظهر للكاتب صنف من رجال الصحراء بخلاف بني ميزاب الممتهنين بالجزارة ؛ إنهم البسكريون الذين يشتغلون بواسطة قطعان الحمير في نقل الرمال، مميزون بلباسهم حيث القلنسوة الصوفية والسترة الخفاقة ومئزر الجلد ...، وكذلك صراخهم الحاد على بهائمهم التي تعمل فوق طاقتها لحمل أكوام الرمل وفي رجوعها يمتطونها والأرجل متدلية معيبا عنهم ذلك في استخفاف جزاء رفقهم بالحيوان " إنها ترتاح الآن في سحق تحت قاماتهم " 103 .

وقد لاحظ الكاتب أن كثيرا من الناس يرتدون ألبسة مهملة، كوصفه لأحد العرب، قائلا : " كان عربيا من السهل، قصيرا قليلا وضخما قليلا، ملتح،جدّ مسمر مرتديا بَرنُوسًا، وعباءة، وتحت ملابسه مثل الفرسان من قميص وسترة واقية مطرزة من

---

96 . أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي .ج6 . ص 482 . 483

97 . عبد الصمد زايد . مفهوم الزمن ودلالته . ص 14

98 . Une année dans le Sahel . P 193 .

99 . Ibid : P 213 . 214 .

100 . Ibid : P 24 . 25 .

101 . Ibid : P 25 .

102 . Ibid : P 35 .

103 . Ibid : P 47 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الحرير، خيط رقيق من الحرير الرمادي من قلنسوة ذهبية مرفوقة حول رأسه « بشريط » من حبل وبر الجمل الأسود، سبحة معلقة إلى الرقبة وحرزين أو ثلاثة حروز كانت مربوطة في تصفيفه شعره " 104.

وعن معلم الكتّاب، لاحظ الكاتب أنه قد شاخ وانقطع عنه الأطفال كبار السن، بينما المتمدرسون فقد صففوا في وضعيات مختلفة، منهم من يجلس أرضا، ومنهم من يتكئ على الحائط، وآخرون يجلسون على مقاعد كرفوف " مستودع لأجل الضجيج والمرح من ساكنيه وكأنه قفص دواجن . المعلم دائما في وسط القسم يدير، يثقف، يحرس، يضع من ثلاث إلى خمس سنوات من التدريس وذلك بتعلم ثلاثة أشياء : القرآن، قليل من الكتابة ومن الآداب، العينين تتبع آي الكتاب، اليد موضوعة على عصا طويلة مرنة مثل السوط التي تمكنه دون مغادرة مكانه من المحافظة على النظام من الزوايا الأربع للقسم " 105

وفي الكتّاب شاهد الكاتب جلوس الأولاد حول معلم القرآن يحفظون سور الكتاب ويتلقون بعض مبادئ الحساب وآداب المعاملة، وحين يكبرون ينصرفون إلى أمور الدنيا، ولعل ذلك نقله من انطباعات « شو » " إن حياة العرب البدوية وغير المستقرة والمظالم التي لا نهاية لها التي يرتكبها الأتراك ضد الحضر (السكان)، لن تسمح لأيهم بالتمتع بالحرية والهدوء والأمن التي أنجبت المعرفة في كل الأزمنة وشجعت عليها . " 106

والمعرفة تعمل على تنوير العقول، وتهذيب الطباع وبها يعرف الناس حقيقة أن الحرية أفضل من الحياة، ومن خلالها كيف تحفظ الحقوق والطرق المؤدية إليها، بما يبعث الضمائر إلى الثورة على الظلم وإزالته " لأن المعرفة تسمح دائما بالمناورة لمن يملكها في مواجهة الآخرين . وسيد المعرفة سوف يصبح وحده باختصار هو السيد " 107

والغريب في الأمر أن معظم الملاحظين قبل الاحتلال الفرنسي للجزائر لهم نفس الانطباعات على أن العربي لا عهد له بالمعرفة وليس له الوقت للدراسة والتفكير، وهذا ما صرح به « دولاكروا » خلال الستينيات من القرن الثامن عشر، سيرا على منهج « شو »، قائلا : "إن شعب المغرب العربي جهّال وليس لهم ذوق في العلم أو الفن وهم بخلاء وغلاظ ومزدرون وشكّاكون وحقودون ... " 108

والظاهر أن التعليم في عهد الاحتلال ترتبت عليه نتائج وخيمة على سكان الجزائر، منها " انخفاض مستوى الدخل والمعيشة للغالبية العظمى من الجزائريين بحيث أن أعدادا ضخمة منهم حرمت من التمتع بالخدمات العامة كالصحة والتعليم والتي كانت تتوفر للوافدين المستوطنين " 109 ولعل فكرة إنشاء المدارس وتثقيف الجزائريين، غرض سياسي يراد منه التأثير على عقولهم وقلوبهم، لترسيخ فكرة التعايش مع المستعمرين، وتغليب اللغة الفرنسية لتحل محل اللغة العربية، " وهذا ما أعلنه « دوروفيكو »، قائلا : إن المعجزة الحقيقية التي علينا أن نصنعها هي أن نحل اللغة الفرنسية شيئا فشيئا محل العربية، بحيث نتمكن عن طريق هذا الإجراء من نشر لغتنا بين الأهالي، خاصة إذا أقبلت الأجيال الجديدة جماعات على التعلم في مدارسنا " 110 وهذا ما كل يرجوه فرومنتان في مناشدته حكومته الفرنسية في الإسراع بإقامة هذه المدارس وازدرائه الكتّاب الذي يمثل لديه طريقة التعليم غير المنتظم ؛ وهذا ما يقود إلى حقيقة مفادها " أن المدرسة القرآنية كانت لا تتمتع بأي دعم من السلطات الاستعمارية، وأنها كانت محاربة، ومضيقا عليها من الأجهزة الإدارية والأمنية، في حين أن المدرسة الفرنسية كانت إحدى أسلحة الاستعمار، ووسيلته للتغلغل داخل أوساط الأهالي، ولذلك كانت تعطى لها كل المساعدة ." 111 غير أن الجزائري من وازعه الديني وخوفا على أبنائه من الاندماج في الاستعمار، قاطع المدارس الفرنسية الحديثة التي رأت في امتناعه عن التعلم والتحضر، بقاءه على الجهل والانطواء، ما يجعله سهل الانقياد والاضمحلال من تلقاء نفسه .

ويلاحظ أن موضوع المرأة عند الكاتب قد أخذ حيزا كبيرا من كتابه، حيث عبر عن انطباعات جلها خارجية، تجلت في جمال القد والعيون واللباس والحلي ؛ ممن أتيح لهن الخروج من البيت،كاليهوديات والزنجيات ؛ في حين أن النساء العربيات لا يخرجن إلا نادرا ومتحجبات وكأنهن محبوسات الحائك والبيت، ومثل هذا التفسير مرده إلى عدم فهمه بالتقاليد الاجتماعية والتعاليم الإسلامية، " والمرأة في نظرهم قدرية غارقة في الخرافات وهي ضحية التخلف والأمية، وهي لعبة الرجل الذي كان يشتريها بنقوده، كما يشتري البهائم والبضائع ... إنها آلة نسل وخادمة بيت وحاضنة أطفال وجالبة حطب وماء " 112

والكاتب لا يروقه النظر إلى المرأة المتحجبة، فهو يرى أن « الحائك » عامل تخلف لها، وعدم ارتدائه دليل تحضرها، مستمدا هذه الفكرة من بيئته لسيطرة المرأة في المجتمع الأوروبي دون مراعاة الوازع الأخلاقي ؛ كما استنكر نظرة الرجل العربي في احتقاره المرأة السافرة، وتبجيله للمتحجبة ؛ وقد تجلى ذلك، في دفاعه عن المرأة التي يعرفها " ... لكن واحدة أظهرت خدودها (يقصد حوّ ة)، الأخريات يقين محجبات . واحدة تفتح إراديا منزلها . الأخريات يغلقنها : هذه ليست نُقطة في مسألة شعورية إنها مسألة من انضباط . كل الفرق يكمن في الستار (الحائك) : يخفض المرأة التي تكون نزيهة . ويرفع المرأة التي ليست كذلك .

ويؤكد الكاتب أن المقبرة عند العرب فضاء للتواعد والمتعة خاصة لدى النساء المتزوجات، واللواتي يجدن في زيارتها فرصة للخروج والالتقاء والتجمع في حلق قصد إظهار مفاتنهن هروبا من صرامة البيوت المغلقة " من يدري ما يقلنَهُ من نميمة، من حكايات الحي، من ثرثرة من أسرار منزلية ومغامرات غرامية من خدع صغيرة ؟ أكثر حرية هنا مما لهن في الحمّام، إنه ليس لهن من كاتمين وشاهدين إلا أناس بالغي الحكم الذين هم ينامون تحت أرجلهن ... (والذين) لا يهدأ لهم بال إلا حينما ينزل عليهم الليل من جديد . " 113

---

104 . Ibid : P 165 .
105 . Ibid : P 53 .
106 . جون بابتست وولف . ساحل الشمال الإفريقي الجزائر تحت الأتراك . ص 155 .
107 . أحمد درويش . الاستشراق الفرنسي والأدب العربي . الهيئة المصرية للكتاب 1997 . ص 21
108 . جون بابتست وولف . ساحل الشمال الإفريقي الجزائر تحت الأتراك . ص 155 .
109 . إبراهيم مياسي . مقاربات في تاريخ الجزائر . ص 155 .
110 . أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه . ص 60 .
111 . المرجع نفسه : ص 234 .
112 . أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي . ج6. ص 337 .
113 . Une année dans le Sahel : P 87 . 88 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد لاحظ فرومنتان تقوقع اليهود في تجمعات سكنية، تكثر بها المشاحنات الكلامية البذيئة مع صراخ الأطفال، وإبداء الحقد على الزائرين عليهم " مثلما اجتزت الفناء لأجل مغادرة المنزل ؛ أحد الأطفال اليهود، الأصغر سنا، صدَقَ بِزَ َقَ) إلى جنب، مديرا رأسه ؛ هذا الذي أنت تعرفه، إنها علامة الازدراء . " 114
كما استعمل الكاتب على لسانه، عددا من الكلمات العربية الفصيحة والدارجة في العامية الجزائرية، تناولت بعضا من مظاهر الحياة اليومية للإنسان الجزائري، كقوله : السلام عليكم ، روح ديالي ، شوف ، واش ، إن شاء الله ، ... وإذا كان هذا القاموس يعبر للكاتب عن الثقافة التي اكتسبها في رحلته ومدى معايشته وتغلغله في الوسط الجزائري، فإنه من جهة أخرى يعد مظهرا رومانسيا حرص الكتّاب قبله إلى إبرازه في كتاباتهم، باعتبار الألفاظ التي يدخلها ضمن ما يسطره قلمه هي وسيلة أيضا لإبراز تفوقه وإبهار القارئ الفرنسي وإدخاله في جهة " الاغتراب L'exotisme " 115 .

ويرى فرومنتان أن اللغة العربية عسيرة الفهم والتواصل، تكاد تكون محصورة فقط عند العرب ؛ والظاهر لديه أن بعض المستوطنين يعرفون المستعملة منها، في حين أن باقي سكان مدينة الجزائر يستعملون خليطا لغويا يعرف بـ« سابير » وهو مزج من بعض اللغات الأوروبية كالاسبانية والبرتغالية والايطالية والفرنسية عند التخاطب مع الأجناس الأخرى " هنا نحن نتكلم جميع لغات أوروبا. ثمة نحن لا نتكلم إلا لغة صعبة من المشرق . من حين لآخر وفيما يتعلق بمنتصف الطريق بين المدينتين، تدور لهجة دولية وبربرية معروفة باسم « سابير Sabir » الذي نفسه هو رمزي ويعني : « تفاهم / الفهم » سوف نفهم ؟ لن نتفاهم أبدا لا أعتقد ذلك . هنالك تجاذبات -من المستحيل- في الأخلاق مثلما هي في الكيمياء ... "116 أأ

وهنا دلالة على انسياق الكاتب مع الاستعمار الذي يهدف إلى التأكيد في عدم وجود وحدة لغوية بين الجزائريين، وهذا ما يفضي إلى عدم تماسك المجتمع الجزائري وأنه خليط من الأجناس المقيمة والمتنقلة الذين لا عهد لهم بهذه الأرض المهجورة ويحق لمن يعمرها أن يمتلكها .

والحقيقة أنه " كان للجزائريين غداة الاحتلال لغة علم وثقافة واحدة مشتركة هي اللغة العربية، التي كانت منتشرة ومتغلغلة في أوساط السكان بدرجة كبيرة، شهد بها المحتلون أنفسهم وكتبها في تقارير رسمية ضباط عسكريون، وموظفون رسميون، وقد وجد بعضهم في نفسه من الشجاعة والموضوعية ما جعله يصرح : بأن القراءة والكتابة كانت عند دخول الفرنسيين أكثر انتشارا بين العرب (الجزائريين) منها بين الفرنسيين، لأنها لم تكن بالنسبة إليهم مجرد لغة تواصل، أو لغة علم فحسب، ولكنها كانت فوق ذلك لغة القرآن ... " 117

ولقد حرص فرومنتان على نقل الأمثال الشعبية المتداولة بين الناس وعدّها من ضروب الحكمة عند العرب فنالت بذلك إعجابه وأسرع في تدوينها لأنها تمثل خلاصة تجربة في الحياة موافقة لمزاجهم العقلي " العرب عندهم كتاب الحكمة في عرفهم وجميع السياسة (اللباقة) الزوجية مضبوطة على هذه التعاليم، إذا فهو محكم متفق عليه ... " 118 .
ومن ضمن ما دوّنه من الأمثال [الكلام من فضة والسكوت من ذهب]119 ؛[متى المرأة رأت الضيف، فهي لم تعد تريد زوجها]120 ؛[أتان في اليوم، امرأة في الليل]121 ؛[إذا كان كل الذي نطلبه نحصل عليه، الشحاذ يصبح بايا]122 ؛[رأس دون حيلة يقطينة أفضل منه]123 ؛[رجل ذو لسان عذب بإمكانه رضع اللبؤة] " 124 ...

ولم يفوّت فرومنتان لحظة الاستمتاع وهو يسرد صغائر الأمور مؤكدا على تسجيله من هذه البيئة كل ما من شأنه الإيحاء بالتخلف الصارخ والمشاهد النادرة " من خلال شجرة تين فسيحة دون أوراق لكنها ..كثيرة الأغصان . جذع الشجرة نقع في بركة ماء آسنة، حيث استثار البط والدجاج مرتبط مثنى مثنى من خلال الوصلة، مثل السجناء ضمن من يتحدى،تتجوّل حول رماد جِدُّ مرتبِكَةٍ من عقالها، كل واحدة تجذب الخيط إلى نفسها دون التمكن من المشي في انسجام .أنا لا أُؤلّف قط الصورة هكذا ؛ لكنني أأأأنقل لك بالضبط ما رأيناه ." 125

وهنا يُلاحظ أن الكاتب تعمّد رصد هذا المشهد البدائي، مبينا الأوضاع المتردية والحياة القديمة في هذه الناحية الآئلة للزوال بسبب التوسع الاستعماري في المدينة، وفرض سياسة التهميش والإقصاء على سكانها ليعشوا في فقر مدقع وجهل حالك تحت أسر الاستبداد .
كما لفت انتباه قرائه إلى أنواع الطيور النادرة كالحبارى والتي لا توجد إلا في هذه البيئة التي ضمت صنوفا متنوعة من الطير والحيوان مبديا امتعاضه من طريقة العرب في صيد الطرائد وتقفي آثارها وقنصها دون هوادة في صورة همجية تفاضلية في إحراز الكم لا الكيف ؛ في حين أن الصيد هواية ومتعة محببة للقادرين عليها تتمّ عن مقدار تحضر أصحابها .

وعن طائر اللقلق والذي غالبًا ما يبني عشه في السطوح والمداخن في مدن شمال إفريقيا، ويهلل بقدومه الناس كعلامة بانقضاء فصل الشتاء وحلول الربيع مما سار في عرفهم أنه فأل خير عليهم، يقول : " رأيت اللقلق متبوعًا من رفقته، ينزل من الجبل ويتوجه نحو « باب السبت »، ... واحد من العرب الذي رآه، مدّ ذراعه وقال واقفا نحوه مباشرة : « شوف البرارج » _ انظر ها هو اللقلق _ . إنهم شاهدوه جميعا على الفور، وكأنه مسافر أقبل عليهم " 126.

[114] . Ibid : P 181 .
[115] . عيسى عطاشي صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء" لفرومنتان نموذجا. ص 111
[116] . Une année dans le Sahel : P 23 .
[117] . د. أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه . ص 23 .
[118] . Une année dans le Sahel : P 35 .
[119] . Ibid : P : 29 .
[120] . Ibid : P 35 .
[121] . Ibid : P 37 .
[122] . Ibid : P 163 .
[123] . Ibid : P 65 .
[124] . Ibid : P 173 .
[125] . Ibid : P 158 . 159 .
[126] . Ibid . P 190 .191 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي هذا الصدد تتحدث الباحثة آن ماري كرستين : " أن الإنسان الجزائري كائن خرافي يخضع في حياته لأوهام، ويرتبط بعالم أسطوري متخلّف لا يمكنه التغلب على الفرنسي الذي يتقدم عليه كبديل حضاري يتصف بالقوة والعبقرية ويخضع حياته للعقل والعلم والتجربة " 127

ويواصل الكاتب وصفه للإبل، بقوله :بعض الجِ مَ الِ التائهة بعيدة عن « الدوار » تقترب بدل الفرار منا ... مستقيمة واقفة معظومة مع ذراها الموبَّرة، ... ورؤوسها الغريبة، من شفه محركة إلى العين الوديعة، هذه الحيوانات كبيرة البنية وضعت بين الأراضي الشاحبة والسماء ذات الزرقة الناعمة . وضاعفت النسب والأحجام وأخذت مثل « فيل » شوهد عن قرب ... الاعتدال من هذه الحيوانات تأخذ فوق العادة مواصفات لنوعية أخلاقية لا نراها جياعًا إننا نعتقد أنها مفكرة (متأملة)" 128

وقبل ظهور الجمل كان الحصان هو الحيوان المستعمل للركوب ونقل الأثقال، إلا أنه أمام الصحراء يبدو حيوانا ضعيفا على تحمل قسوة طبيعتها وحاجته إلى العلف باستمرار، لذا لم تتوان السلطة الاستعمارية في استخدام حيوان الجمل ضمن قوتها لاكتساح الصحراء " والجمل يستعمل لنقل الأمتعة الثقيلة ومختلف أنواع البضائع، ولكنه يستعمل أيضا بسرج أو راحلة للركوب . وهذا النوع هو الذي يسمى « المهري » والذي استخدمه الفرنسيون بكفاءة لإخضاع الصحراء ولسلب الرجل الصحراوي حريته التي تحمّل المشاق وناضل من أجلها قرونا طويلة ." 129

وقد خصص فرومنتان جزءا من كتابه في وصف الخيل وطقمها ؛ مبينا فن ركوب الخيل وألعاب الفروسية عند العرب، " الرجال كانوا في ... أثواب الحرب : سروال الخفاف، الحايك (العباءة) المستديرة والمزخرفة، الأحزمة المجهزة من الخراطيش ... ذهبوا معًا وصلوا إلى الأقصى . شيء كفاية نادر للعرب... الركاب بجنب الركاب...، الأذرع ممتدة الزمام للريح ... يناورون سواء بالبنادق سواء بالسيوف ...ومن خلال الحركة التي لا يمكن وصفها، كل البنادق طائرة فوق الرؤوس،... تفريغا عامًا الذي نحن يغطينا من البارود ويحْجُبنا بالدخان الأبيض، النساء يصفقن ... في حدث مثل الحرب، المشهد باهر الذي يسمى فنطازيا عربية هذا المشهد ينتظر رسّامه ... " 130

ومما يذكر أن الجنرال « أوجين دوما* Eugène Daumas »ألّف كتابا عن الحصان العربي سماه : « خيول الصحراء الكبرى مع تعليقات للأمير عبد القادر » نُشر وأعيد طبعه ثانية عام 1853، لما لقيه من استحسان ونجاح وتجاوب مع القارئ الأوروبي المتطلّع إلى أخبار الشرق ؛ وكان من بين من استفاد منه الكاتب فرومنتان، الذي فتح المجال أمامه للتعبير عن ألعاب ة« الفنطازيا » أو « ألعاب الفروسية العربية » بعد أن تشبّع فكره بأقوال المتمرسين في هذا الميدان، يقول : " الجنرال ب. ديكاريير B. De Carriere ((إن للعرب في تربية الخيل وترويضها أفكارا ذات صحة لا يمكن إنكارها لأنها ثمرة خبرة تقليدية ... وحصانهم هو الجدير بالمعارك ... إنها خدمة إضافية لجيشنا في إفريقيا ...)) " 131

كما حرص الكاتب أن يقدم الفرنسي في صورة كاملة مثالية تؤهله لأن يبرز كإنسان متشبع بالمسؤولية خبير بحياة الأهالي يدير شؤونهم بحزم وصرامة دون أن يجرده ذلك من مشاعره وعواطفه الخيّرة ؛ يعرف تاريخهم وسوابقهم وشؤونهم الداخلية وقرابتهم، وقد مثّل ذلك عن طريق شخصه وشخصية صاحبه لويس فوندال « بوجعبة » ومن خلال عظمة شعبه التي يستحضرها من حين لآخر، للاستشهاد بها في موضوعات كتابه ؛ وبالمقابل لا يروقه تصرفات بعض المستوطنين*، الذين يتصرفون على شاكلة العرب والذين يتخبطون في عالم خرافي وتقاليد بالية مما يدل على تخلف فكرهم وبدائية سلوكهم .

وهنا يتضح من العرض السابق، أن فرومنتان زار الجزائر، التي دفعته إلى معايشة الحالة الروحية للشرق وتسجيل كل مظاهر السلوك والعادات والتقاليد ؛ مؤكدا في كتاباته إلى قرّ ائه ما استنبطه من أحكام كثيرة عن هذه البيئة التي عبّر عنها بشجاعته الأدبية وموهبته الفنية في الرسم وعناء الالتزام بالموضوعية في نقل الواقع؛ إلا أن ذلك كان يمثل ملاحظات عامة أقرب إلى الانطباعات الشخصية التي قد يتفق معها سائحون آخرون،كما أنها أحكام خاصة تمّ تعميمها على الكل، بالإضافة إلى أنها انطباعات رجل وقع تحت تأثير مشاعر الإحباط التي انتابته بسبب تجربته العاطفية في طفولته ؛ ولملء خوائه الروحي المؤلم، ازداد نهمه في السعي إلى التألق في فن الكتابة من خلال موضوع الجزائر، رجاء التغلب على أزماته النفسية والبحث عن التوازن والصفاء لشخصيته بين الجميل والغريب من هذه البيئة الشرقية .

وعلى الجملة فإن الصورة التي أنجزها فرومنتان عن الجزائر وشعبها اتسمت بمظهرين واضحين من خلال القراءة الأولى لكتابه المدروس، يتجلى المظهر الأول في صورة الواقع التعيس الذي عاشه الشعب الجزائري تحت نير الاستعمار وخبث خططه في استحواذه على أرض الجزائر وإعمارها باسم : « إفريقيا الفرنسية » ؛ وتتخللها صورة انبهار بجمال البيئة التي طالما حلم بمثلها الغرب في امتلاكها،فكتاب الصحراء مثّل الصيف الإفريقي بعينهوكتاب السهل مثّ ل الجزائر المخضرة الضاحكة وأضوائها الفاتنة وتضاريسها المختلفة وآفاقها اللامتناهية وهي صورة المشرق وكأنها آيات من الكتاب المقدس .

أماالمظهر الثاني فقد تمثل في صورة تعبر عن نظرة ذاتية لواقع وهميّ تؤطره روح الاستعلاء والتعصب غير مبرأ من سياسة التمييز التي ينتهجها الغرب اتجاه العرب وغيرهم من الشعوب المبنية أساسا على النفعية المادية .

---

127 . Un été dans le Sahara . P 17. 18 .
128 . Ibid : P 289 .
129 . إسماعيل العربي . الصحراء الكبرى وشواطئها . المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ؛ 1983 ص 45 .
130 . Une année dans le Sahel . 327 .
* للجنرال أوجين دوما أربعة مؤلفات :
- « الصحراء الجزائرية Le Sahara Algrien 1845 »
- « الصحراء الكبرى Le Grand Désert 1848 »
- « آداب وعادات الجزائر Mœurs et Coutumes de L'Algérie 1853 »
- « الحياة العربية والمجتمع الإسلامي La vie et La Société Musulmane »
131 . أوجين دوما . خيول الصحراء الكبرى مع تعليقات لأمير عبد القادر . عرض وتحليل : سلميان قطاية . مجلة عالم الفكر المجلد التاسع عشر (19) العدد الرابع (04) . الكويت (أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر 1988م) ؛ ص 271 .
* مثل جار الكاتب البولوني « آدم » غريب الأطوار،الذي يملك حظيرة دواجن، كثير التأملات، والسهر مع الغرباء في ظلام الليل الدامس، لم يشعل لهم نار موقده يوما، ويتصرف - في نظر الكاتب - كعربي يميت ساعات حياته ليستتر تحت التراب .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

قائمة المصادر والمراجع :

أولا: المصادر :

01. Eugène Fromentin . Une année dans le Sahel . Michel Lévy Frères, Libraires - Editeurs . Paris 1859 .

02. Eugène Fromentin . Un été dans le Sahara . Présentation et Notes par Anne Marie Christine . Editions Le Sycomore . Paris . 1981 .

ثانيا : المراجع العربية :

03. أبو القاسم سعد الله . تاريخ الجزائر الثقافي 1830- 1954 . ج6 . ج8 .ج10. دار البصائر الجزائر.

04. إبراهيم مياسي . مقاربات في تاريخ الجزائر 1830 - 1962 . دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع الجزائر 2007 .

05. أحمد درويش . الاستشراق الفرنسي والأدب العربي . الهيئة المصرية للكتاب 1997 .

06. أحمد منور . الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه . ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 2007 .

07. إسماعيل العربي . الصحراء الكبرى وشواطئها . المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1983 .

08. جون بابتست وولف . ساحل الشمال الإفريقي الجزائر تحت الأتراك . ترجمة أبي القاسم سعد الله تحت عنوان : الجزائر وأوروبا 1500 – 1830 . المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1986 .

09. عبد الصمد زايد . مفهوم الزمن ودلالته في الرواية العربية المعاصرة، الدار العربية للكتاب، تونس - ليبيا 1988 .

10. عبد المجيد حنون . صورة الفرنسي في الرواية المغربية . ديوان المطبوعات الجامعية . الجزائر ؛ 1986

11. غاستون باشلار . جمالايات المكان ؛ ترجمة : غالب هلسا . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2 . 1984 .

12. منى أحمد أبو زيد، الفكر الديني عند زكي نجيب محمود . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. ط1 . بيروت، لبنان

ثالثا : المراجع الفرنسية :

13. Delacroix E. Voyage au Maroc 1832 . Paris 1930 .

14. Eugène Fromentin . Les Lettre de jeunesse . Paris . 1909 .

15. Roger Le Tournau " Les villes Musulmanes de L'Afrique du nord " Ma Maison des livres . Alger 1957 .

رابعا : الرسائل الجامعية :

16. عيسى عطاشي صورة الجزائر في أدب الرحلات الفرنسي "صيف في الصحراء" لفرومنتان نموذجا. مشروع لنيل شهادة ماجستير 2005 .

خامسا : الدوريات باللغة العربية :

17. مجلة عالم الفكر . الكويت ؛ 1988 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com